فصول من مخيم اليرموك 24

فصول من سيرة مخيم اليرموك (24)

للكاتب ثائر عودة

في متابعة تسليط الضوء على الأعلام أو النجوم التي زيّنت سماء المخيم وتركت آثاراً لا تُغفل في الحالة الثقافية في اليرموك يمكن الحديث عن نجوم الصف الثاني إن جاز التعبير بعد اليوسف والموعد ودرّاج كون تأثيرهم لم يتجاوز حدود المخيم ودمشق كثيراً بالإضافة إلى أن نتاجهم الثقافي لم يكن بغزارة نتاج هؤلاء الأوائل لكنهم لعبوا دوراً ثقافياً مهماً، وكانت بيوت معظمهم مراكز ثقافية خاصة نتردد إليها ونتزود العلم والكتب والتجارب. ويأتي في مقدمتهم الأستاذ الرائع أحمد سعيد نجم (1950) قارئ نهم بكل ما تعنيه الكلمة وقاص مقلّ لكنه مبدع (أصدر فقط مجموعتين قصصيتين على فترات متباعدة الأولى صدرت في وقت مبكّر عن اتحاد الكتاب العرب: شاطئ السردين المعلّب 1979 والثانية: مفترق البيارات 1991) وكان بيته يزخر بمكتبة عامرة وربما فريدة، وكان حريصاً على اقتناء الكتب قديمها وحديثها ولا يبخل في إعارتها لنا بل يحثنا على ذلك كلما زرناه في بيته ودار الحديث عن موضوع أو مفردة تخص الأدب العالمي أو العربي فيبادر إلى القول عندي كتاب يتحدث عن هذا الموضوع سأعطيك إياه لتقرأه ويقفز إلى رف من رفوف المكتبة العامرة ليحضر ذلك الكتاب.. وكنت أمتثل لذلك حباً وكأنه المعلم الذي يضع الكتب أمامي وأنا أقوم بدور التلميذ المطيع الذي عليه أن يلتهم هذه الكتب خلال ساعات أو أيام.. كي تعود إلى أمكنتها قبل اكتشاف غيابها وفاءً بوعد مقطوع مني للمعلم من أجل أن أعيدها...وإلى اليوم ما يزال الكتاب هو أهم وأثمن شيء عندي والتهامه أهم وجبة يومية أتغذى عليها، والسؤال الذي يتردد على لساني دائماً هو: شوفي كتب جديدة ومهمة من خلال مداومتي على زيارة معارض الكتب والحرص على حضورها مهما كانت ظروف عملي.. وبسبب (نجم) نما لدي حب الكتاب، وكوّنت أكثر من مكتبة حقيقية في المنازل التي عشت فيها في المنافي المتوالدة (المخيم - مدينتي العين والشارقة في الإمارات)، وإن آل بعضها إلى أيدي العفيشة الخسيسين مع باقي أشيائي في اليرموك، وإذا كانت زوجتي قد حزنت على أثاثنا الذي عُفّش قبل أن نفرح باستخدامه إلا قليلاً، فإنّ حزني على كتبي كان وما يزال لا يساويه البكاء على سرقة غسالة أو ثلاجة أو تلفزيون... وكان أحمد سعيد نجم كريماً وأصيلاً ومهذباً لا ينال أحداً بسوء ولا يحب مجالس النميمة والثرثرة عن أي كاتب سواء كان كبيراً أم صغيراً .. لديه تهيّب شديد من النشر، ومازلت أذكر عبارته الشهيرة: إنه لأمر خطير يا ثائر أن أدخل مكتبة وأرى كتابي

يجاور – مصادفة - كتاباً لشكسبير أو لدستويفسكي أو فوكنر أو جيمس جويس أو سواهم.. وهذه العبارة حفرت فيني عميقاً في قادم الأيام وجعلتني أنظر دائماً إلى نتاجي بأنه متواضع في سجل تاريخ الفكر والأدب.. كان (نجم) دون أن يدري وأدري معلمي حيث كنت قد بدأت بالتردد إلى بيته مبكّراً في أثناء دراستي في دبلوم الدراسات العليا في آداب دمشق (أول التسعينيات) وهو من فتح أفق الوعي لديّ على الكتب والقراءة وحب البحث والمعرفة وصرت أحج إلى بيته رفقة زميل لي زاهد بمغريات الحياة شغوف بالقراءة والمعرفة (وكان طالباً في قسم اللغة الإنجليزية في آداب دمشق ولديه مشروع حفظ قاموس المورد للبعلبكي) بالمناسبة كان (نجم) يحمل إجازة في اللغة الإنجليزية من السبعينيات وقبلها معهد إعداد المدرسين (صف خاص)، ثم استقال من مهنة التعليم وانخرط في صحافة الثمانينات السورية والفلسطينية واللبنانية.. وبالتالي كانت معارفه متنوعة بين الآداب العالمية والعربية.. وكنت قد التقيته أول مرة بعد أن كتبت مراجعة نقدية لمجموعته القصصية الثانية (مفترق البيارات) التي صدرت عام 1991 وأحبّ صديقنا الشاعر ماهر رجا أن يحتفي بالكاتب والمجموعة فدعانا كعادته إلى بيته لمناقشة المجموعة وكانت أمسية ثقافية رائعة اجتمع فيها مجموعة من الأدباء الشباب في اليرموك وفِي بيت ماهر الجميل المتواضع (فلسطينيون وسوريون) وكان الحوار مثمراً وحيوياً أثمر عن صداقة طويلة بيني وبين (نجم) وشكرت ماهر رجا لأنني بسببه وقعت على كنز معرفي حقيقي.. وهو من قدّمني لاحقاً إلى د.فيصل درّاج مسؤول القسم الثقافي في مجلة (الهدف) كما أسلفت.. وتجدر الإشارة إلى أن مزيد الشغف لدى نجم أحاله لاحقاً إلى (مطارد كتب) من طراز مختلف عن باقي تجار الكتب يبحث عن سلاسل الدوريات العريقة والمفقودة والكتب القديمة النادرة يجمعها ويبيعها لمن يستحقها.. وبالتالي بقي وفياً للكتب دون أن تلتصق به نهائياً صفة التاجر...(يتبع)